

التحرير والتنوير

وبيـن ذلـك بالـتفـريـع بـقولـه (فـقالـوا أـنـؤـمـن لـبـشـرـين مـثـلـنـا وـقـومـهـما لـنـا عـاـبـدـون) فـهـو متـفـرع عـلـى قولـه (فـاستـكـبـرـوا) أـي استـكـبـرـ فـرـعـون وـمـلـؤـه عـن اـتـبـاع مـوـسـى وـهـارـون فـأـفـصـحـوا عـن سـبـبـ استـكـبـارـهـم عـن ذـلـك بـقولـهـم (أـنـؤـمـن لـبـشـرـين مـثـلـنـا وـقـومـهـما لـنـا عـاـبـدـون) . وـهـذـا لـيـسـ من قولـ فـرـعـون وـلـكـنـه قولـ بعضـ المـلـأـ لـبعـضـ وـلـمـا كـانـوا قد تـرـاضـوا عـلـيـهـ نـسـبـ إـلـيـهـمـ جـمـيـعاـ . وـأـمـا فـرـعـونـ فـكـانـ مـصـفـيـاـ لـرـأـيـهـ وـمـشـورـتـهـمـ وـكـانـ لـهـ قولـ آخـرـ حـكـيـ فيـ قولـهـ تـعـالـىـ (وـقـالـ فـرـعـونـ يـاـ أـيـهـاـ الـمـلـأـ مـاـ عـلـمـتـ لـكـمـ مـنـ إـلـهـ غـيرـيـ)ـ إـنـ فـرـعـونـ كـانـ مـعـدـودـاـ فـيـ درـجـةـ الـآـلـهـةـ لـأـنـهـ وـإـنـ كـانـ بـشـرـاـ فـيـ الصـورـةـ لـكـنـهـ اـكـتـسـبـ إـلـهـيـةـ بـأـنـهـ اـبـنـ الـآـلـهـةـ .

وـالـاسـتـفـهـامـ فـيـ (أـنـؤـمـنـ)ـ إـنـكـاريـ أـيـ ماـ كـانـ لـنـاـ أـنـ نـؤـمـنـ بـهـمـاـ وـهـمـاـ مـثـلـنـاـ فـيـ الـبـشـرـيـةـ وـلـيـسـ بـأـهـلـ لـأـنـ يـكـوـنـاـ اـبـنـيـنـ لـلـآـلـهـةـ لـأـنـهـمـ جـاءـاـ بـتـكـذـيـبـ إـلـهـيـةـ الـآـلـهـةـ فـكـانـ مـلـأـ فـرـعـونـ لـضـلـالـهـمـ بـتـطـلـبـوـنـ لـصـحةـ الرـسـالـةـ عـنـ إـنـ يـكـوـنـ الرـسـولـ مـبـاـيـنـاـ لـلـمـرـسـلـ إـلـيـهـمـ فـلـذـلـكـ كـانـواـ يـتـخـيـلـوـنـ آـلـهـتـهـمـ أـجـنـاسـاـ غـرـبـيـةـ مـثـلـ جـسـدـ آـدـمـيـ وـرـأـسـ بـقـرـةـ أوـ رـأـسـ طـائـرـ أوـ رـأـسـ اـبـنـ آـوـيـ أوـ جـسـدـ أـسـدـ وـرـأـسـ آـدـمـيـ وـلـاـ يـقـيمـوـنـ وـزـنـاـ لـتـبـاـيـنـ مـرـاتـبـ النـفـوـسـ وـالـعـقـوـلـ وـهـيـ أـجـدـرـ بـظـهـورـ التـفاـوتـ لـأـنـهـ قـرـارـةـ إـلـنـسـانـيـةـ . وـهـذـهـ الشـيـهـةـ هـيـ سـبـبـ ضـلـالـةـ أـكـثـرـ الـأـمـمـ الـذـيـنـ أـنـكـرـوـاـ رـسـلـهـمـ .

وـالـلامـ فـيـ قولـهـ (لـبـشـرـينـ)ـ لـتـعـدـيـةـ فـعـلـ (نـؤـمـنـ)ـ .ـ يـقـالـ لـلـذـيـ يـصـدـقـ المـخـبـرـ فـيـماـ أـخـبـرـ بـهـ :ـ آـمـنـ لـهـ فـيـعـدـيـ فـعـلـ (آـمـنـ)ـ بـالـلامـ عـلـىـ اـعـتـبـارـ أـنـهـ صـدـقـ بـالـخـبـرـ لـأـجـلـ المـخـبـرـ أـيـ لـأـجـلـ ثـقـتـهـ فـيـ نـفـسـهـ .ـ فـأـصـلـ هـذـهـ الـلامـ لـامـ الـعـلـةـ وـالـأـجـلـ .ـ وـمـنـهـ قولـهـ تـعـالـىـ (فـآـمـنـ لـهـ لـوـطـ)ـ وـقولـهـ (وـإـنـ لـمـ تـؤـمـنـواـ لـيـ فـاعـتـزلـوـنـ)ـ .ـ وـأـمـاـ تـعـدـيـةـ فـعـلـ إـلـيـمـانـ بـالـبـاءـ فـإـنـهاـ إـذـاـ عـلـقـ بـهـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ الـخـبـرـ تـقـوـلـ :ـ آـمـنـتـ بـأـنـ إـنـ وـاحـدـ .ـ وـبـهـذـاـ ظـهـرـ الـفـرـقـ بـيـنـ قولـهـ :ـ آـمـنـتـ بـمـحـمـدـ وـقولـهـ :ـ آـمـنـتـ لـمـحـمـدـ .ـ فـمـعـنـىـ الـأـوـلـ :ـ أـنـكـ صـدـقـتـ شـيـئـاـ .ـ وـلـذـلـكـ لـاـ يـقـالـ :ـ آـمـنـتـ إـنـ وـإـنـماـ يـقـالـ :ـ آـمـنـ بـإـنـ .ـ وـتـقـوـلـ :ـ آـمـنـ بـمـحـمـدـ وـآـمـنـتـ لـمـحـمـدـ .ـ وـمـعـنـىـ الـأـوـلـ يـتـعـلـقـ بـذـاتـهـ وـهـوـ الرـسـالـةـ وـمـعـنـىـ الـثـانـيـ أـنـكـ صـدـقـتـهـ فـيـماـ جـاءـ بـهـ .

وـ (مـثـلـنـاـ)ـ وـصـفـ (لـبـشـرـينـ)ـ وـهـوـ مـاـ يـصـحـ التـزـامـ إـفـرـادـهـ وـتـذـكـيرـهـ دونـ نـظرـ إـلـىـ مـخـالـفةـ صـيـغـهـ مـوـصـوفـهـ كـمـاـ هـنـاـ .ـ وـيـصـحـ مـطـابـقـتـهـ لـمـوـصـوفـهـ كـمـاـ فـيـ قولـهـ تـعـالـىـ (إـنـ الـذـيـنـ تـدـعـونـ مـنـ دونـ إـنـ عـبـادـ أـمـتـالـكـمـ)ـ .

وـهـذـاـ طـعـنـ فـيـ رسـالـتـهـمـاـ مـنـ جـانـبـ حـالـهـمـاـ الـذـاتـيـ ثـمـ أـعـقـبـوـهـ بـطـعـنـ مـنـ جـهـةـ مـنـشـئـهـمـاـ وـقـبـيلـهـمـاـ فـقـالـواـ (وـقـومـهـماـ لـنـاـ عـاـبـدـونـ)ـ أـيـ وـهـمـ مـنـ فـرـيقـ هـمـ عـبـادـ لـنـاـ وـأـحـاطـ مـنـاـ فـكـيـفـ يـسـوـدـاـنـاـ .ـ وـقـولـهـ (عـاـبـدـونـ)ـ جـمـعـ عـاـبـدـ أـيـ مـطـيعـ خـاصـعـ .ـ وـقـدـ كـانـتـ بـنـوـ إـسـرـائـيلـ خـوـلاـ لـلـقـبـطـ وـخـدـمـاـ لـهـمـ

قال تعالى (و تلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) .

و تفرع على قوله التصميم على تكذيبهم إياهما المحكي بقوله (فكذبوهما) أي أرسى أمرهم على أن كذبوهما ثم فرع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين إذ أهلكهم الله بالغرق أي فا نتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا . وهذا أبلغ من أن يقال : فأهلكوا كما مر بنا غير مرة .

والتعليق هنا تعقيب عرفي لأن الإغراق لما نشأ عن التكذيب فالتكذيب مستمر إلى حين الإهلاك .

وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأن في قوله (من المهلكين) إنما إلى أن الإهلاك سنة الله في الذين يكذبون رسle .

(ولقد آتينا موسى الكتب لعلهم يهتدون [49]) لما ذكرت دعوة موسى وهارون لفرعون وملئه وما ترتب على تكذيبهم من إهلاكهم أكملت قصة بعثة موسى بالمهم منها الجاري ومن بعثة من سلف من الرسل المتقدم ذكرهم وهو إيتاء موسى الكتاب لهداية بني إسرائيل لحصول اهتدائهم ليبني على ذلك الاتعاظ بخلافهم على رسleم في قوله بعد ذلك (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) فإن موعدة المكذبين رسولهم بذلك أولى . وهنا وقع الإعراض عن هارون لأن رسالته قد انتهت لاقتصره على تبليغ الدعوة لفرعون وملئه إذ كانت مقام محاجة واستدلال فسائل موسى ربه إشراك أخيه هارون في تبليغها لأنه أفصح منه لسانا في بيان الحجة والسلطان المبين .

والتعريف في (الكتاب) للعهد . وهو التوراة .